جوانب من كفاح السعوديين الأوائل

شفيق

١- فجر الدولة السعودية الأولى

بقلم: الدكتور أحمد فؤاد متولي

دخل السلطان سليم الأول (١٥١٢–١٥٢٠م ، ٩١٨–٩٢٦هـ) حلب في يوم الجمعة غرة شعبان ٩٢٣ هـ (٢٩ أغسطس ١٥١٦ م) ، بعد أن هزم السلطان المملوكي قانصوه الغوري (١٥٠١ ـ ١٥١٦ م ، ٩٠٦ ـ ٩٢٢ هـ) في معركة مرج دابق في ٢٤ أغسطس ١٥١٦م (٢٥ رجب ٩٢٢ هـ) ٠ وأقام صلاة الجمعة بمسجد الملك الظاهر ٠ وقد قرئت الخطبة باسم السلطان العثماني ، ووصفه الخطيب في خطبته بأنه « مالك الحرمين الشريفين » ، فنهض سليم من مكانه واقفا ، وقال : « من أنا حتى أكون مالكا للحرمين ، انني أفتخر بأن أكون خادما للحرمين لا مالكا لهما (١) » ٠

أمر السلطان بكتابة رسائل للتبشير بالفتح ومنح الأمان مصحوبة بالفرمانات ، الى مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة وينبع (٢) في يوم الجمعة ١٣ فبراير ١٥١٧م (٢١ المحرم ٩٢٣ هـ) ، قبل دخوله القاهرة بيومين ، على اثر قيام جنوده بتطهيرها ، وبعد أن استتبت الأمور لسليم في القاهرة ، ارسل شريف مكة زين الدين بركات (حكم ١٤٩٧ ـ ١٥٢٥م) ابنه أبا الحسنى ومعه مشايخ طوائف الأعراب للتهنئة بالفتح وعرض الطاعة والولاء ، فأخلع السلطان عليهم وأحسن اليهم جميعا (٣) ٠

بعد أن قبل السلطان سليم طاعة شريف مكة المكرمة زين الدين بركات التي قدمها ابنه ، أرسل اليه الشريف ابنه الأكبر محمد أبانمي ، يطلب خلعته وابقاءه في حكم بلاده ٠ وعندما علم سليم بقدوم محمد أبي نمي الى القاهرة في يوم الجمعة ٣ يوليو (١٣ جمادى الثانية) ، أمر بارسال الأغوات لاستقباله ٠ وفي يوم الاثنين استقبل السلطان ابن شريف مكة استقبالا حافلا ٠ وبعد مضي ستة أيام قدم محمد أبو نمي الطاعة والولاء وبعض الهدايا للسلطان سليم (٤) ثم سلمه مفاتيح الأماكن المقدسة والآثار النبوّية الشريفة الموجودة في مكة المكرمة والمدينة المنورة (٥) ٠ وهكذا أصبحت الحجاز تابعة للامبراطورية العثمانية ٠

اقر سليم حكم الحرمين الشريفين على ما هو عليه ، وبعث مع محمد أبي نمي رسالة بالعربية الى أبيه ، تتضمن الموافقة على أن يكون حكم مكة المكرمة في الشريف بركات وابنه الأكبر محمد من بعده (٦) .

كان حكم آل عثمان اذ ذاك شاملا لكافة الحجاز حتى رأس حلى جنوب القنفذة ، وأما نجد وسائر الجهات الداخلية في حدود المملكة الحالية فلم يكن لهم فيها نفوذ فعلي . وضعفت هيبة سلاطين آل عثمان بعد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م ، ١٠٣٢ ـ ١٠٤٩ هـ) ؛ لأنهم بانشغالهم بالفتن الداخلية والحروب الخارجية ، أهملوا حكم البلاد ، وتركوا الأحكام في أيدي الأمراء المحليين من الأشراف والأمراء (٧) .

ومن الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية ظلت قوية مرهوبة الجانب طوال حكم العشرة سلاطين الأول الذين يطلق عليهم السلاطين العظام . ثم بدأت ملامح الضعف تظهر على الدولة العثمانية بعد هؤلاء السلاطين . وقد ظهر الضعف الشامل في الامبراطورية العثمانية في أواخر عهد مراد الثالث ، ابتداء من سنة ١٥٩٠م (١٠٩٨هـ) . وأخذ الضعف يزداد شيئا فشيئا ، ولم تجد معه الاصلاحات والتنظيمات كثيرا ، رغم جدية السلاطين وتفانيهم في تطبيقها ، غير عابئين بالمخاطر التي تنتظرهم من جراء محاولاتهم هذه . فقد دفع بعضهم حياته ثمنا للاصلاحات ، وضحى البعض الآخر بعرشه .

كانت الدولة العثمانية في حالة ضعف شامل عند ظهور الدعوة السلفية . وكانت هذه الفترة حافلة بالحروب مع روسيا والبندقية والنمسا . وتوالت هزائم العثمانيين أمام أعدائهم هؤلاء ، لأن أعداءهم كانوا قد أخذوا بأسباب التقدم ، وكونوا جيوشا مدربة على الأصول الحديثة ، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية آخذة في الانهيار والتدهور . وكانت أهم أسباب التدهور ، هي : انصراف السلاطين عن تصريف أمور البلاد ، وفساد الانكشارية وكثرة هزائمها ، والأزمات الاقتصادية الشديدة ، وتسلط العلماء ، وعدم الأخذ بأسباب التقدم الذي قطع فيه الأوربيون شوطا بعيدا (٨) .

يوشك أن يكون تاريخ الحرمين خلال الألف سنة الماضية عبارة عن تاريخ الشرافة ونشوئها وارتقائها ثم تداعيها وهبوطها . وقد انقضت على الشرافة حقب كانت فيها كل شيء في الحجاز ، كما أنها في حقب أخرى

لم تكن شيئا مذكورا بل كان القائم بأمرها العوبة في أيدي الملوك والسلاطين والخلفاء (٩) .

ان ضم السلطان سليم للحجاز كانت له نتائج بعيدة المدى من حيث علاقة الشرافة بالسلطنة ، وضعف هذه العلاقة وقوتها ، وظروف طواريء جمة في البلاد الحجازية لم تكن من مصلحة أهل البلاد أنفسهم . فقد وجد السلطان في الشريف أداة صالحة لحكم الحرمين فأطلق له الحرية في العمل واكتفى منه باظهار العبودية والطاعة ، وقراءة اسمه في الخطبة ، وتسهيل قدوم المحامل من الجهات الشامية والعراقية والمصرية وفيما بعد اليمنية ، واعتبار نفسه تابعا للسلطان في صغير الأمور وجليلها ، وموظفا عثمانيا يصدر بتعيينه فرمان سلطاني (١٠) .

ويتلخص تاريخ الشرافة في عهد « أبي نمي الثاني » (١١) (٩٣٢ ـ ٩٩٠هـ) الى أيام الشريف غالب بن مساعد (١٢٠٢ ـ ١٢٢٨هـ) في القرن الماضي بأنه تاريخ مطرد ، ووصف متشابه ، لما كان يجري بين الأشراف أنفسهم من فتن ومعارك كان القصد منها تبديل أمير ، وفيما يجري بين الأشراف والموظفين العثمانيين من أمراء الحج وولاة البلاد المجاورة ، وفيما يقع في الحرمين وأطرافها من غزو البدو واعتداءاتهم على السابلة وقطعهم الطريق وانتهابهم للحجاج ، وفيما يقوم به الأشراف من تجريد الحملات لكبح جماحهم وتأديبهم (١٢) .

والواقف على تاريخ الأشراف في الحجاز يرى أنه تاريخ مملوء بالدماء والفظائع ، فالشريف منهم في سبيل الامارة لم يكن يتورع عن قتل أخيه وأبناء عمومته في سبيل الحكم ، ولقد بلغت ببعضهم القسوة أن قتل أحدهم أخاه وطبخ لحمه ودعا اخوانه الباقين لوليمة ، قدم لهم فيها لحم أخيه ! (١٣)

وصلة الحجاز بنجد صلة قوية ، وحدودها غير واضحة ولا مرسومة . هذا فضلا عن أن أشراف مكة ، كانوا يعتبرون بلاد نجد ، وخصوصا المجاورة للحجاز ، مشمولة بنفوذهم وخاضعة لهم ، وكانوا يواصلون ارسال الحملات عليها لتأديبها وجباية الزكاة من أهلها .

وتابع الأشراف سيرة الدعوة السلفية باهتمام وماكانوا كأكثر الناس في ذلك العهد ، يتوقعون لها نجاحا ، على أن نظرتهم اليها أخذت تتبدل بعد أن شرقت وغربت ، وضمت معظم مقاطعات نجد اليها وادخلتها في دائرة طاعتها ، وأنشأت فيها دولة جديدة يحسب حسابها . وما قامت

فيها دولة من قبل بلغت ما بلغته ووصلت الى ما وصلت اليه (١٤) .

اعتبر أشراف مكة الدعوة السلفية خروجا على الدين الاسلامي وتعاليمه . ورغم صراعاتهم التي لا تنتهي فيما بينهم ، الا أن هذا لم يمنع الشريف مسعود بن سعيد (توفى ١١٦٥هـ) الذي عاصر الأمير محمد بن سعود من رفض السماح لأهل نجد بأداء فريضة الحج (١٥) .

وهناك حقيقة لابد لنا من تقريرها ، وهي أن آل سعود لم يبدأوا الأشراف بالعدوان ولم يستفزوهم ، ولم يأتوا بما يشتم منه رائحة التحدي لهم . بل سعوا سعيا حثيثا للتفاهم معهم ، ولاقناعهم بحسن نيتهم وصادق رغبتهم في انشاء أفضل علاقات الود والصداقة معهم . فلم يجدوا تجاوبا ولم يلمسوا عطفا ، بل ولا ميلا للتفاهم والتواصل ، اذا لم نقل العكس . وهو أن الأشراف هم الذين بدأوا بالتحدي والاستفزاز ، وعملوا لتشويه سمعة الدعوة واظهارها على غير حقيقتها .

لقد كانت مكة في ذلك العهد ، حاضرة كبيرة من حواضر الثقافة في العالم الاسلامي ، ومركزا كبيرا من مراكز الدعاية ، بسبب وفود الحجاج سنويا اليها من جميع أنحاء هذا العالم . فكان الأشراف يرسلون دعاتهم ، فيندسون بين الحجاج ، فيصفون لهم الحالة في نجد ، ويبكون وينوحون ويشقون الجيوب ، ويلطمون الخدود أسفا على الأضرحة والقباب التي هدمتها الدعوة ، وعلى منعها الاستغاثة بقبور الأولياء والصالحين ، وحملها الناس على اتباع سيرة السلف الصالح والاهتداء بهديه ، ومقاومتها البدع والخرافات . ويقولون انها تحارب الاسلام وتقضي عليه ، وتنشر دينا جديدا ونحلة جديدة ، يبرأ منها الاسلام وينكرها .

ووصلت أخبار هذه الحملة المفتراة الى نجد ، وعرف أبناؤها أن الأشراف يحاربون الدعوة حرب دعاية عنيفة . فرأوا باديء ذي بدء ، وقبل اتخاذ أي اجراء أو تدبير عسكري ، أن يسعوا للتفاهم معهم عن طريق وفد يرسلونه اليهم ، فيطلعهم على حقيقة حركتهم ويصف لهم الأغراض التي ترمي اليها ، والمباديء السامية التي انبثقت عنها ، ويذكر النتائج الباهرة التي ادركتها . فقد استطاعت في سنوات قليلة أن تنقذ شعب نجد من الجهالة التي كان يخب فيها . وتنشيء مجتمعا جديدا يؤمن بالتوحيد ويتفانى في سبيله (١٦) .

ارسل أبناء سعود بعض علمائهم الى مكة مرارا لاقناع علمائها بالدعوة

السلفية التي أرسى أصولها شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ، ولكن رغم اقتناع علماء مكة بدعوة علماء نجد ، الا أن موقف الأشراف ظل متصلبا ومعاديا واستفزازيا . فقد امتنع الحج على أهل نجد ، تحديا من الأشراف وتعسفا (١٧) .

ورأى الشريف غالب ألا يكتفي بمنع النجديين من دخول الحجاز وأداء فريضة الحج ، فأعد جيشا من البدو والأنصار ، زحف من مكة سنة ١٢٠٥هـ يريد الدرعية ، فكان ذلك فاتحة هذا النضال العنيف بين آل سعود والأشراف ، وقد استمر نحو ١٤٠ سنة (١٢٠٥ ـ ١٣٤٤هـ) وانتهى بفوز الأولين وبخروج الآخرين (١٨) .

أرسل الشريف غالب بن مساعد حملته الأولى سنة ١٢٠٥هـ (١٧٩٠م) ، وكانت الدرعية وجهتها واخضاع نجد غايتها . ولكنها لم توفق . ونتيجة لذلك أحس الشريف بأن قبائل كثيرة في الحجاز انضوت تحت لواء آل سعود وقدمت لهم البيعة ، فخاف على ملكه أن يزول . فجمع علماء مكة والمدينة واستكتبهم رسائل للسلطان العثماني سنة ١٢٠٧هـ لطلب النجدة العاجلة لانقاذ الأماكن المقدسة من خطر آل سعود (١٩) .

ويذكر المؤرخ التركي أحمد جودت باشا في كتابه ، أن أحمد باشا الجزار ذهب الى الحجاز لأداء فريضة الحج ١٢٠٨هـ ، فشكا اليه الشريف غالب مر الشكوى من آل سعود ، فنصحه الجزار بأن يكتب تقريرا بذلك الى السلطان العثماني (٢٠) . فلما وصل التقرير الى السلطان حوله الى مجلس الشورى لبحثه ، وكانت النتيجة سلبية لتوهم الأعضاء أن التقرير مبالغ فيه وأن المسألة لا تعدو أن تكون تنافسا شخصيا (٢١) .

وفي سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤م) أراد آل سعود الرد على حملة الشريف ، فأعدوا جيشا كبيرا للاستيلاء على الحجاز ، ولكنه لم يوفق كثيرا . ورد الشريف على هذه الحملة بحملة أخرى أعدها في العام التالي ، ولكن نتيجتها كانت كسابقتها تقريبا . وأعاد الشريف غالب الكرة مرة ثالثة في نفس العام ، ولكن المحصلة كانت واحدة أيضا . وتوالت المعارك والحملات بين الطرفين على مناطق الأطراف بينهما وكانت النتائج محدودة (٢٢) . ثم هزم الشريف سنة ١٢١٢هـ (١٧٩٧م) أمام آل سعود في حملته التي قادها ضدهم في بيشة . ولما تحقق من ضعفه ، مال الى الصلح ، فعقد الصلح بين الطرفين سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) شريطة السماح للنجديين بالحج . وذات

يوم حدث خلاف بين الشريف ووزيره عثمان بن عبد الرحمن المضايفي ، فغادر الوزير مكة والتجأ الى الدرعية وبايع الأمير . ثم أقام في العبيلا ، ولما علم الشريف بذلك جهز جيشا هاجم به العبيلا ، ثم ارتد عنها خائبا الى الطائف (٢٣) ، فلحق به عثمان بعد أن جهز له جيش كبير من الدرعية ، وهاجم الطائف فانسحب الشريف الى مكة ، فتعقبه عثمان ودخل مكة منتصرا سنة ١٢١٧هـ (١٨٠٣م) بعد أن استولى على الطائف (٢٤) . ثم لحق به الأمير عبد العزيز بن سعود بجيش كبير وأدى فريضة الحج (٢٥) ولما أنس الشريف في نفسه الضعف أرسل وهو في جدة طالبا الصلح ، فأجابه الأمير الى طلبه وأعاده الى منصبه ، وترك حامية قوية بمكة ثم قفل راجعا الى الدرعية (٢٦) .

وهنا ينبغي علينا أن نتعرف على رد الفعل لدى العثمانيين عندما خرجت مكة المكرمة من أيديهم :

بعد أن سقطت مكة في أيدي آل سعود ، ارتاع السلطان سليم الثالث (١٢٨٩ ـ ١٨٠٧م ، ١٢٠٣ ـ ١٢٢٢هـ) عندما سمع الخبر . وقد وافاه الشريف غالب بن مساعد أمير مكة المكرمة بتقرير مفصل في غرة صفر سنة ١٢١٩هـ عن استيلاء آل سعود على مكة . وعندما قرأه السلطان كتب تأشيرة أعلاه قائلا : « لقد سببت لي أحوال الحرمين اضطرابا فائقا » (٢٧) . وكتب الشريف رسالة أخرى في اليوم نفسه الى السلطان يرجوه أن يطلب من مصر الامدادات العسكرية العاجلة (٢٨) . ولم يقتصر الأمر على الشريف غالب ، بل ان عبد الله باشا العظم والي الشام كتب للسلطان تقريرا عن الدعوة السلفية . وبعد أن اطلع عليه السلطان ، كتب أعلاه تأشيرة ، تقول : « انني لا أذوق طعم النوم .. انني أكاد أبكي ، ولكن البكاء ليس من شيمة الرجال (٢٩) » .

هذا كله يدل على أن الدولة العثمانية أصابها الارتباك الشديد واعترتها الحيرة ، حيث تأكد لديها أن قوة الدرعية لا يستهان بها ، وأن الدعوة السلفية تنتشر انتشارا سريعا . وأن مكة المكرمة قد ضاعت من يدها ولم تعد لها السيطرة عليها ، وهذا ما يؤدي بالتالي الى فقدان العثمانيين لهيبتهم لدى العالم الاسلامي وضياع مركزهم المتميز بين دوله .

والحاح الشريف غالب على السلطان لكي يطلب له العون العسكري العاجل من مصر ، يبرهن على أن قوة آل سعود كانت كبيرة ، وقد زادهم صدق دعواهم حماسا وشجاعة وتفانيا من أجل نشر مبادئهم التي نادوا بها .

فكانوا لا يخافون أحدا ٠٠ تحدوا الدولة العثمانية واستولوا على مكة المكرمة ثم على الحجاز بأكمله فيما بعد ٠ وتحدوا الدولة العثمانية وأغاروا على العراق فالشام من بعد ٠ وكل هذا يدل دلالة واضحة على تفانيهم ، فهم أصحاب دعوة سامية ضحوا من أجل نشرها دون خوف أو تردد ٠

انتهز الشريف غالب فرصة الصلح ، ثم أخذ يدعم قواته ٠ ولما آنس في نفسه القوة أخرج الحامية النجدية من مكة ، واستقل بالحكم استقلالا تاما ٠ فتحرك الأمير سعود على رأس قواته ودخل مكة ، فاستقبله الشريف وبايعه ، فاقره في منصبه ، وقد استسلمت المدينة المنورة وأطاعت قبل مكة ، ولكن سعود لم يأت الى المدينة الا بعد دخوله مكة ومصالحته للشريف غالب ٠

جاء سعود الى المدينة المنورة في آخر ذي الحجة سنة ١٢٢١ هـ ، فضبطها وأقام فيها حامية كبيرة ، وأجلى كل من فيها من الموظفين الترك (٣٠) ٠

كان استيلاء سعود على الحرمين الشريفين ، تحديا صارخا للسلطان العثماني ٠ ولو لم تكن الدولة العثمانية ضعيفة تمزقها الفتن الداخلية والحروب الخارجية ، لما سكتت على هذا التحدي ٠ ولسير السلطان جيوشه الى الحجاز ونجد لمحاربة سعود منذ أن استولى على الحرمين الشريفين (٣١) ٠

وكثيرا ما تطالعنا الوثائق التركية بالسلطان العثماني يطلب من ولاة الشام والعراق مرارا مكافحة آل سعود أو (السلفيين) (٣٢) ، منذ أن ظهرت قوة آل سعود وبدأت دعوتهم في الانتشار ٠ وبعد أن استولى سعود على الحرمين الشريفين ، بدأت الدولة العثمانية تلح الحاحا شديدا على ولاتها في الشام والعراق وتستحثهم لكي يتحركوا بعد أن استفحل الخطر على حد زعم السلطان العثماني ٠ فقد قام سعود فضلا عن غزوه للحرمين الشريفين بطرد الموظفين والجنود العثمانيين من الحرمين ، ومنع الدعاء للسلطان العثماني على المنابر لأنه من البدع (٣٣) ، وحرمانه من أعز لقب يحمله وهو « خادم الحرمين الشريفين » ٠

وبعد أن تولى السلطان محمود الثاني العرش (١٨٠٨ ــ ١٨٣٩م ، ١٢٢٣ ــ ١٢٥٥هـ) ، آل على نفسه أن يخلص الحرمين من أيدي ابن سعود ٠ وكان السلطان يستعظم جيوش سعود ويحسب حسابها ٠ ولا يتصور أن محمد علي باشا والي مصر يمكنه أن يقوم بالعبء وحده ٠ والحقيقة أن كلا من والي الشام ووالي العراق تلكأ في القيام بالمهمة بحجة عدم القدرة منفردا ٠ وكان كل منهما يتملص من المسئولية ويزعم أن مصر وحدها هي

التي تقدر على القيام بالمسئولية ، خاصة وأن جيشها سيعبر البحر في أمان ٠ أما قوات الشام والعراق ، فانها ستجتاز صحراء واسعة مليئة بالمخاطر (٣٤) ٠

أمر السلطان العثماني بارسال رسالة الى محمد علي لتكليفه بالقضاء على السلفيين ، فورد الرد من والي مصر بالاعتذار عن القيام بالمهمة المذكورة في وقتها ، نظرا لوجود بعض القلاقل في صفوف الجيش ٠ والرسالة التالية التي بعث بها القائمقام موسى باشا الى محمد علي في ٨ شوال سنة ١٢٢٢ هـ (ديسمبر ١٨٠٧م) ردا على رسالة الأخير توضح هذه المسائل (٣٥) : « ٠٠٠٠ وردت الينا تحريراتكم الطيبة التي تفضلتم بارسالها الينا ، وبعد أن أحطنا بما فيها وفهمنا مؤداها واطلعنا على تفاصيلها ، علمنا أنكم قد عقدتم النية وصممتم العزيمة على اتباع الوسائل الكفيلة بدحر الوهابيين والقضاء عليهم ، بعد دخولكم مصر ، وقيامكم بالقضاء على الفتن التي حدثت بين العساكر بسبب الرواتب وتصميمكم على ضبطهم وربطهم منعا للقيل والقال » ٠ ثم يستحث موسى باشا محمد علي ، قائلا : « وبما لكم من خصائل حميدة كالشجاعة والروية ، فان الذات السامية تطلب منكم الاقدام والتصميم في كلا المسألتين ٠ ونأمل ونتوقع أن تبذلوا مساعيكم وتركزوا اهتمامكم سواء في القضاء على الوهابيين أو في سائر الأمور الأخرى التي تؤمرون بها (٣٦) » ٠

وأخذ السلطان العثماني يغري محمد علي ويدفعه لكي يذهب الى الحجاز ، فأرسل اليه القابجي المسمى بيانجي بك « بالأوامر لخروج العساكر للبلاد الحجازية وخلاص البلاد من أيدي الوهابية ٠ وفي مراسيمه التي حضر بها التأكيد والحث على ذلك ٠ فلم يزل الباشا يخادعه ويعده بانفاذ الأمر ، ويعرفه أن هذا الأمر لا يتم بالعجلة ، ويحتاج الى استعداد كبير وانشاء مراكب في القلزم وغير ذلك من الاستعدادات (٣٧) » ٠

ثم أرسل السلطان محمود الثاني الى محمد علي يحثه على اعداد جيشه والسفر الى الحجاز ، ويذكر له « أنه حرم النوم والراحة على نفسه منذ أن تولى العرش ، بسبب وجود الحرمين الشريفين في قبضة ابن سعود » ، ثم يمدحه قائلا : « اذا أراد الله بملك خيرا جعل له وزيرا صالحا ان نسي ذكره وان ذكر أعانه (٣٨) » ٠

وقد رد محمد علي على السلطان في ٢٢ ذي القعدة ١٢٢٣ هـ شارحا له الظروف التي أدت الى تأجيله موعد القيام بمهمته في الحجاز ، قائلا على لسان معتمده عابدين باشا : « عندما وصلت التحريرات السنية تستفسر عن

تحركنا شخصيا للقضاء على الوهابيين الذين استولوا على الحرمين الشريفين وتصميمنا الشديد على ذلك ، بحث الموضوع من جميع جوانبه ووجد أن تحرك مولانا بمفرده يتنافى مع شروط الحيطة والحذر طبقا للمحاذير والاستطلاعات • ويحتاج الأمر الى التحرك من ثلاث جبهات (٣٩) ، لاتمام المأمورية ، وقد أرسلنا اليكم تحريراتنا نخبركم فيها بأنه عندما ترسل المهمات اللازمة ، نبذل الهمة والنشاط في العام القادم لكي نتحرك • وتتيسر المصلحة اذا أرسلتم الينا سبعة آلاف أو ثمانية آلاف من عساكر الروملي الشجعان مع لوازمهم ، لأن عساكر الشام وعكا لا تقدر على الحرب ، فقد أشيع أن أكثرهم من العجزة (٤٠) » •

وكان الواجب يقتضي من السلطان العثماني — في ظني — أن يقف على حقيقة الدعوة السلفية الاصلاحية ، بدلا من أن يحرض محمد علي لمحاربتها والقضاء عليها • فالسلطان أولى باتباع تعاليم هذه الدعوة الصحيحة ، هي أولى له وأنفع لبلاده وللمسلمين كافة •• فقد انتشر الفساد في داخل الامبراطورية العثمانية وخارجها ، وراجت فيها الرشوة وكثر الانحراف وعمت الفوضى ، وعاث الانكشارية فيها فسادا ونهبا ، واهتزت الثقة في أمور الادارة ، واستولى علماء الدين على عقول الحكام والسلاطين وأصبحت الدولة تسترضيهم في شتى المناسبات ، وقد لعبوا دورا هاما في عزل الولاة وتنصيبهم •

وكتب التاريخ العثماني تذكر لنا الكثير من الأمثلة على انتشار الفساد والاضمحلال وتردي السلطة الحاكمة • والأمثلة على ذلك كثيرة :

هذا السلطان يطلب من شيخ الاسلام أن يقوم بعمل « استخارة » لمعرفة أكفأ الرجال لمنصب الصدارة العظمى •

وذلك السلطان يستبعد أحد المرشحين ، لأنه سمع من أحد العلماء بأن اسمه لم يكن من الأسماء التي تقترن بـ « اليمن » •

وهذا القائد يتوقف عن الحركات العسكرية ، انتظارا لحلول « أشرف الساعات » التي يعينها المنجمون •

وذلك القائد يمتنع عن الهجوم ليلا — وفق اقتراح مستشاره العسكري — لأن العلماء الذين كانوا يرافقون الجيش قالوا له « ان الهجوم ليلا ، لا يتفق مع شعائر الاسلام (٤١) » •

ويذكر بعض المؤرخين أن آل سعود لو لم يتعرضوا للحجاز ، لبقوا

في مأمن من الدولة العثمانية ، ولكبرت دولتهم واتسعت وقويت في وسط الجزيرة ، مع اتباع سياسة ودية أو شبه ودية مع استانبول ، والاكتفاء بنوع من التحالف مع شريف مكة لضمان ولائه (٤٢) · ولكنني لا أوافق هؤلاء فيما ذهبوا اليه ، اذ أن العداوة والبغضاء بدأت من أشراف الحجاز لآل سعود ، كما أن المناوشات والاعتداءات بدأت من جانبهم ايضا على أطراف نجد · وكان على آل سعود أن يردوا على الشريف لكيلا يكون خطرا على دولتهم الناشئة وهي في مرحلة التكوين · وفوق كل ذلك فان الدعوة السلفية ، قامت لكي تنتشر في الربوع والآفاق ، لا لكي تتقوقع ، أو تظل حبيسة في حدود نجد ، لأنها دعوة اصلاحية عظيمة تصحح مسار الاسلام الذي انحرف به العباد ···

« ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا ، وحاربوا ابن سعود في داره بأسلحة لا عهد لأهل البادية بها ، لكان المرجو أن يوحد كلمة العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ، كما وحد ظهور الاسلام كلمتهم في القرن الأول (٤٣) » ·

* * *

الحــــواشي

١ – أحمد راسم : عثمانلي تاريخي ، حاشية ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ استانبول ١٣٢٩ هـ ٠

٢ – حيدر جلبي : روزنامة حيدر جلبي ، ضمن مخطوط برقم ١٩٥٥ ر في مكتبة طوبقبو سرايي باستانبول ، بعنوان : سلطان سليمك ايران سفرينة دائر مخابرات ، ورقة ١٥٠ أ ٠

٣ – أحمد فريدون : منشآت الملوك والسلاطين ، مخطوط بمكتبة طوبقبو سرايي برقم ١٩٦٠ ر ٠

٤ – حيدر جلبي : نفس المرجع ، ورقة ١٤٣ – ١٦٠ ٠

٥ – مترجمي نصوح : فتح نامة ديار عرب ، مخطوط وحيد في مكتبة نور عثمانية باستانبول ، رقم ٤٠٨٧ ٠

لا تزال بعض هذه الآثار التي جاء بها السلطان سليم والتي اتى بها آخرون ممن جاءوا بعده ، محفوظة حتى اليوم في جناح الأمانات المقدسة بمتحف طوبقبو سرايي ٠

٦ – جلال زاده قوجه نشانجي مصطفى : مآثر سليم خاني طاب ثراه ، مخطوط بمكتبة طوبقبو سرايي ، برقم ٤١٥ ، ورقة ١٤٣ ب ١٤٤ أ ٠

٧ – فؤاد حمزه : قلب جزيرة العرب ، ط ٢ ، ص ٣٠٥ – الرياض ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨م) ٠

٨ – لتفصيل ذلك انظر :

Stanford Shaw : Between Old and New,
The Ottoman Empire under Selim III PP. 3 - 11

٩ – فؤاد حمزه : نفس المرجع ، ص ٣١٣ ٠

١٠ – فؤاد حمزه : نفس المرجع ، ص ٣١٧ ٠

١١ – وضع أبو نمي قانونا مكونا من ست وثلاثين مادة تحكم بموجبه الأراضي الحجازية ٠

[أنظر نص القانون في كتاب حسين بن محمد نصيف : ماضي الحجاز وحاضره ، جـ ١ ، ص ١٧ ، ١٨ – مصر ١٣٤٩هـ]

١٢ – فؤاد حمزه : نفس المرجع ، ص ٣١٩ ، ٣٢٠ ٠

١٣ – حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ، ص ١٥٠ – القاهرة ١٩٦٧ ٠

ويذكر كتاب « التاريخ العثماني المفصل » كثيرا من الأحداث الدامية التي جرت بين الشريف غالب وأخيه الشريف عبد الله على الشرافة ٠ وقد أدت هذه الأحداث الى توقف الأذان والصلاة في المسجد الحرام وتناثر بعض الرصاص داخل الحرم ٠

[Bir Heyet : Mufassal Osmanli Tarihi, cilt 5,s. 2703
Istanbul 1962]

١٤ – أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، ص ٦٢ ، ٦٣ – بيروت ١٩٦٤ ٠

١٥ – أحمد السباعي : تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ٣٠٢ – القاهرة ١٩٥٢ ٠

١٦ – أمين سعيد : نفس المرجع ، ص ٦٣ ، ٦٤ ٠

١٧ – أنظر : حسين بن غنام : تاريخ نجد ، جـ ٢ ، ص ١٣١ – ١٤٥ – الرياض ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) ٠

١٨ – أمين سعيد : نفس المرجع ، ص ٦٦ ٠

١٩ – أنظر الوثيقة التي أرسلها علماء المدينة للسلطان سليم الثالث (١٧٨٩ – ١٨٠٧م ، ١٢٠٣ – ١٢٢٢هـ) في ١٣ شوال ١٢٠٧ هـ لهذا الغرض ٠

[الوثيقة محفوظة في متحف طوبقبو سرايي باستانبول ، تحت رقم ٣٨٥٥]

٢٠ – لم يكن هناك نفوذ لأي قوة أجنبية في الجزيرة العربية في مطلع القرن الثامن عشر ، الا للعثمانيين في الحجاز ٠

[Derek Hopwood : The Arabian Peninsula, Society and Politics, P. 54 London 1972]

٢١ – أحمد جودت باشا : تاريخ جودت ، م ٦ ، ص ٩٢ استانبول ١٣٠٢ ٠

انطلقت الدعوة السلفية من نجد ثم ضمت الاحساء والبحرين ، وهددت البصرة

وبغداد وانتشرت حتى عمان ومسقط ، وامتدت الى الحجاز واليمن . وباختصار انتشرت في الجزيرة كلها تقريبا . وعندما رفع شريف مكة شكواه الى استانبول ، انشغل علماؤها بمناقشة الشكوى لبحث شرعيتها أو عدم شرعيتها . وكانت الدولة العثمانية غافلة عن معاليم الدعوة ومراميها ، في الوقت الذي أصدرت فيه الدول الأوربية مؤلفات كثيرة عن الوهابيين بلغات عدة .

[Ismail Hami Danismend : Izahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, cilt 4,S.80 Istanbul 1972]

ولم تنتبه الدولة العثمانية الا بعد أن غزا ابن سعود الحجاز ، ولم تحس بالخوف الشديد الا بعد ان اغار على العراق والشام .

Baily Winder : Saudi Arabia in the Nineteenth Century, New york 1965] P. 7

٢١ ـ انظر : حسين بن غنام : نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٤٥ ـ ١٨٥ .

٢٢ ـ عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، جـ ١ ، ص ١٢٢ الرياض ١٣٩٤ هـ

٢٤ ـ انظر :

John Philby : Saudi Arabia, Beirut 1968, PP. 103, 104

٢٥ ـ استكتب الشريف أيضا المجاورين للحرم الشريف . فكتبوا للسلطان العثماني سليم الثالث في ١٩ المحرم ١٢١٨ هـ يشكون من آل سعود . وكذلك فعل مع علماء المدينة المنورة ، فكتبوا للسلطان العثماني في نفس التاريخ [انظر الوثيقة رقم ٣٧٨٩ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي] .

٢٦ ـ انظر : أمين سعيد : المرجع السابق ، ص ٦٦ ـ ٧٠

وانظر ايضا : عبد المنعم الغلامي : تاريخ الدولة السعودية ، ص ١٠ ـ ١٢ (د.م) ١٩٥٤ .

٢٧ ـ انظر الوثيقة رقم ٣٧٨٦ ـ ا المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي .

٢٨ ـ انظر الوثيقة رقم ٣٧٨٦ ـ ب المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي .

٢٩ ـ انظر الوثيقة رقم ٣٨٥٤ ـ أ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي .

٣٠ ـ عثمان بن بشر : نفس المرجع ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

د. منير العجلاني : تاريخ البلاد العربية السعودية (عهد سعود الكبير) ، جـ ١ ، ق ٣ ، ـ بيروت د.ت ص ٤٨ .

Yilmaz Oztuna : Osmanli Tarihi, cilt 11, s. 122, 123 Istanbul 1967

يذكر بايلي وندر في كتابه أن « ال سعود فاجاوا العالم بطردهم للعثمانيين من مكة والمدينة سنة ١٨٠٦م (١٢٢١هـ) . وأصبحت الدولة السعودية في نهاية العقد الأول من القرن المذكور (التاسع عشر) ، تبحث لقوتها النامية ودعوتها الناشئة عن مخارج من دمشق وبغداد الى اليمن وحضرموت ومن الخليج الى البحر الأحمر . واتسعت الدولة الجديدة كثيرا بحيث يمكنها ان تدافع عن نفسها ضد أي غزو أجنبي .

[Baily Winder : Ibid., P. 6]

٣١ ـ د. منير العجلاني : نفس المرجع (عهد سعود الكبير) ، جـ ١ ، ق ٣ ص ٩١

٣٢ ـ انظر الوثائق ، رقم ٣٦١٠ ، ٣١٢٦ ، ٣٨١٩ ، ٣٤٩٢ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي .

٣٣ ـ أحمد جودت : نفس المرجع ، م ٨ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

٣٤ ـ انظر الوثائق ، رقم : ٣٩٠٦ ، ٣١٠١ ، ٤٧٥٩ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي وانظر ايضا : احمد جودت : نفس المرجع ، م ٦ ، ص ١٠٠ ، ١٠١ .

٣٥ ارسل موسى باشا الرد على رسالة محمد علي في عهد السلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ ـ ١٨٠٨م ، ١٢٢٢ ـ ١٢٢٣ هـ) .

٣٦ ـ انظر الوثيقة رقم ٥ بالمحفظة رقم ١ من مجموعة بحر برا ، المحفوظة في دار الوثائق المصرية .

٣٧ ـ عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، م ٣ ، ص ٢٣٥

بيروت ، دار الفارس (د٠ت) .

٣٨ ـ أنظر الوثيقة رقم ٢٦٩٣ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي .

٣٩ ـ يقصد الشام والعراق ومصر .

٤٠ ـ أنظر الوثيقة رقم ١٥ بالمحفظة رقم ١ من مجموعة بحر برا ، المحفوظة في دار الوثائق المصرية .

٤١ ـ أبو خلدون ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٢ ، ص ٥٢ بيروت ١٩٦٠ .

٤٢ ـ د٠ منير العجلاني : نفس المرجع ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٩٣ .

٤٣ ـ طه حسين : الحياة الأدبية في جزيرة العرب ، مقال في ص ٦١٠ من مجلة الهلال في عددها الصادر في مارس ١٩٣٣م .

* * *